مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ كورنثوس ٩:٦-١١)

يا إخوةُ إنَّ مَن يزرَعُ شحيحاً فشحيحاً أيضاً يحصُدُ ومن يزرَعُ بالبركاتِ فبالبركاتِ أيضاً يحصُدُ* كلُّ واحدٍ كما نوى في قلبه لا عن ابتئاس أو اضطرار. فإنَّ اللهَ يحبُّ المعطيَ المتهلِّلَ* واللهُ قادرٌ أن يزيدَكم كلَّ نعمةٍ حتى تكونَ لكم كُلُّ كفايةٍ كلَّ حين في كُلِّ شيءٍ فتزدادوا في كُلِّ عمل صالح* كما كُتب إنَّهُ بدَّدَ أعطى المساكينَ فبرُّهُ يدوم إلى الأبد* والذي يرزقُ الزارعَ زرعاً وخُبزاً للقوتِ يَرزقُكم زرعكم ويُكثِّرُهُ ويزيدُ غِلالَ برِّكم* فتستغنون في كلِّ شيءٍ لكلِّ سَخاءٍ خالِصٍ يُنشئُ شُكراً لله.

الإنجيل

(لوقا ١٠: ٢٥-٣٧)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ ناموسيٌّ وقال مجرِّباً لهُ يا معلّمُ ماذا أعملُ لأرِثَ الحياةَ الأبديَّة*

القديس يوحنا الرحيم

تُعيِّد الكنيسة المقدسة في الثاني عشر من تشرين الثاني لتذكار أبينا الجليل في القديسين يوحنا الرحيم بطريرك الإسكندرية الذي استحق لقب «الرحوم» لما كان يقوم به من رحمة تجاه الفقراء والمعوزين.

وُلد القديس يوحنا عام ٥٥٥ في أماثوس القبرصية لوالدين تقيين أنشآه على مخافة الله كما وفّرا له نصيباً وافراً من العلم. كان والده أحد النافذين الكبار في قبرص لذا كان له سطوة على ابنه فأجبره على الزواج عنوة. كان ليوحنا عدّة أولاد من هذا الزواج إلا انهم رقدوا جميعاً مع والدتهم وتركوه وحيداً إلى ربه.

لا نعلم أشياء كثيرة عن حياته وهو علماني، كما لا نعرف تاريخ انتقاله إلى الإسكندرية للعيش فيها. ما نعرفه انه في العام ٦٠٩ أو ٦١٠ وبعد فوضى في الإسكندرية انتزع نيقيتا، قريب الإمبراطور هرقل، الحكم هناك، كما برز يوحنا، الرجل العادي، كبطريرك على المدينة. ويحكى ان يوحنا كان عرّاب أولاد نيقيتا. ويبدو ان يد الله كانت وراء هذا الإختيار كما سنرى.

قبل تصييره بطريركاً اشترط يوحنا أن يجري خدّام البطريركية والشمامسة مسحاً «لأسياده» الفقراء، فأتوه بلائحة من سبعة آلاف وخمسمئة اسم. فطلب ان توزع عليهم مدّخرات البطريركية، ثمانية آلاف ذهبية، وأن يقام بسد حاجاتهم يوماً فيوماً. تمَّ ما طلبه فدخل الكنيسة وتم تصييره بطريركاً، واتخذ اسم يوحنا الخامس. اهتمامه بالفقراء استمر طيلة فترة رئاسته البطريركية، وقد أثارت تصرفاته انتقاد الكثيرين، إلا انه لم يبال بها لأنه كان ينفذ وصية الرب بالإهتمام بالإخوة الصغار.

العدد ٢٠٠٦/٤٦

الأحد ١٢ تشرين الثاني

تذكار أبينا الجليل في القديسين يوحنا الرحيم رئيس أساقفة الإسكندرية وأبينا البار نيلس

اللحن الخامس

إنجيل السَحَرْ الحادي عشر

كان لديه ملء الثقة بالله والإيمان العميق بأن الله سوف لن يمنع الخيرات عن الكنيسة التي تضيف الغرباء وتطعم الفقراء وتلبس العراة. كان يؤمن بأن الله سوف يعطيه «مئة ضعف» (متى ١٩:٢٩). ويحكى انه أتاه إنسان سرق اللصوصُ بيته ولم يبقَ له شيء. أمر القديس بإعطائه خمس عشرة ليرة ذهبية، إلا ان أمين الصندوق أعطاه خمس ليرات فقط. عاد القديس من الصلاة في الكنيسة فوجد رسالة وبداخلها خمسمئة ليرة ذهبية. فرح يوحنا لأنه علم ان الله أرسل له

فقال لهُ ماذا كُتبَ في الناموس. كيف تقرأُ* فأجابَ وقالَ أحببِ الربَّ إلهَكَ من كلِّ قلبِك ومن كلِّ نفسِك ومن كلِّ قدرتِك ومن كلِّ ذهنِك وقريبك كنفسِك* فقال لهُ بالصواب أجبتَ. إعملْ ذلك فتحيا* فأراد أن يُزكِّيَ نفسَهُ فقال ليسوعَ ومَن قريبي* فعاد يسوعُ وقال كان إنسانٌ منحدِراً من أورَشليمَ إلى أريحا فوقع بين لصوص فعَرَّوهُ وجرَّحوهُ وتركوهُ بيَن حيٍّ وميّتٍ* فاتَّفقَ أنَّ كاهناً كان منحدِراً في ذلك الطريق فأبصرَهُ وجازَ من أمامهِ* وكذلك لاويٌّ أتى إلى المكانِ فأبصرَهُ وجازَ من أمامهِ* ثمَّ إنَّ سامِريًّا مسافراً مرَّ به فلمَّا رآهُ تحنَّنَ* فدنا إليهِ وضمَّدَ جراحاته وصبَّ عليها زيتاً وخمراً وحملهُ على دابَّتهِ وأتى بهِ إلى فندقٍ واعتنى بأمرهِ* وفي الغدِ فيما هو خارجٌ أخرجَ دينارَيْن وأعطاهما لصاحبِ الفندقِ وقال لهُ اعتَنِ بأمرهِ. ومهما تُنفِقْ فوقَ هذا فأنا أدفَعُهُ لكَ عند عودتي* فأيُّ هؤلاءِ الثلاثةِ تحسَبُ صارَ قريباً للذي وقعَ بين اللصوص* قال الذي صنعَ إليهِ الرحمةَ. فقال لهُ يسوعُ إمضِ فاصنَعْ أنتَ أيضاً كذلك.

مالاً بدل الذي أعطاه للرجل، إلا أنه ارتاب بخطأ ما. فقد اعتاد أن يرسل له الله مئة ضعف عوض ما أحسن به، لذا كان لا بد أن يرسل له ألف وخمسمئة ليرة. استدعى الخدام وعلم أنهم خالفوا وصيته. ولما أتته المرأة التي تبرعت بالمبلغ سألها كما كانت تنوي أن تقدِّم. فقالت انها لما كتبت الرسالة كتبت أولاً ألف وخمسماية، إلا انها بعد عودتها من الصلاة رأت الرقم خمسمئة. فقالت ان الله لا يريدها أن تعطي أكثر.

كان عطاؤه للناس غير مشروط رغم وجود عدد من المستغلّين. لم يكن يسأل إذا كان الشخص مستحقاً أم لا. الله هو الذي يحاسب. كان يقول لخدامه ان الرب قال «مَن سألك فأعطه». وعندما علم ان بعض المحتاجين لا يصلون إليه بسبب خدّامه، صار يجلس أمام باب الكنيسة كل أربعاء وجمعة منتظراً الفقراء وكان بعضهم يهينونه لأنه لم يعجبهم ما أعطاهم، فهم يريدون المزيد. أما هو فكان يشكر الرب. وبقدر ما كان رحيماً كان يعيش فقيراً لا يطيق أن ينعم هو بما ينقص اخوة المسيح الفقراء. ويُحكى ان أحد الأثرياء لاحظ رثاثة ثوبه فأهداه واحداً غالي الثمن. قَبِل يوحنا هدية المعطي إلا انه لم ينم طوال الليل وهو يفكر بالعراة. فقام في الصباح وقصد السوق حيث باع الثوب ووزع ثمنه على الفقراء. عاد الثري واشتراه ثم قدّمه إليه مجدداً. باعه من جديد ووزع المال. وهكذا أيضاً مرة ثالثة.

ذات يوم أتاه ثري تزوج مرتين وأراد تقديم إعانة لأهل الإسكندرية أثناء إحدى المجاعات، شرط أن يصيّره يوحنا شماساً. رفض يوحنا العطية لأن الله لا يقبل إلا القربان الخالي من العيب، والله الذي أطعم الخمسة آلاف من الخمسة أرغفة لن يهمل شعبه. وبالفعل وصلت إلى ميناء الإسكندرية في الصباح التالي السفن المحمَّلة بالذرة.

لم يقتصر نشاطه على الإحسان فقط، بل أسس المستشفيات للفقراء، واستحدث الخانات لإيواء الغرباء والمشردين، ونزل إلى الأسواق لضبط المقاييس والأوزان لدى التجار. كما دخل في نزاع مع صديقه نيقيتا كونه أرهق الفقراء بالضرائب، ولم يرضَ أن يأخذ منه أي شيء من المال الذي كان يوزعه على الفقراء.

أما بالنسبة للأمور الكنسية، فقد كان أهل مصر وقت تسلمه البطريركية من أصحاب الطبيعة الواحدة، ولم يكن فيها سوى سبع كنائس. فدافع عن الإيمان وأرشد ووعظ وعاد الكثيرون إلى الإيمان القويم وصار فيها أكثر من سبعين كنيسة. أسس رهبنتين وبنى القلالي، وطلب من الرهبان الصلاة الدائمة من أجله كي يتمِّم ما يقوم به. تطبعت المدينة بطابع الرهبان فصارت المدينة كلها ديراً دائماً الصلاة ليل نهار.

يُقال انه عندما رأى الكنائس خالية أثناء القداس، خرج وقت العظة إلى الساحات حيث يتجمع الناس ليعلمهم، فخجلوا منه، وهكذا صاروا لا يفوِّتون أي قداس. أما بالنسبة للهراطقة الذين لم يعودوا عن ضلالهم فكان لا يساوم على قضية عدم مشاركتهم في الكأس الواحدة.

هذا جزء قليل من سيرة قديس كان بمثابة إنجيل متنقل بين البشر. أما رقاده فكان عام ٦١٩ في مسقط رأسه أماثوس التي كان يزورها بإلهام إلهي وهو في طريقه إلى القسطنطينية. رقد هناك ليولد قديساً في الملكوت فبشفاعاته أللّهم ارحمنا وخلصنا آمين.

تأمل

إن السامري يمثّل الرب يسوع لا لطبيعة ألوهته بل لطريقته المتحنّنة. ان السامري بطبيعة جسده كان يشبه الآخرين لكن بشفقته لم يكن يماثلهم. لقد فاق عليهم. هكذا كان مع الرب، ظهر كإنسان بصورته الجسدية شبيهاً بالأنبياء وبالأجداد بحسب طبيعته الجسدية التي أخذها من مريم العذراء. لكن بقوة ألوهيته فاق على الجميع. كان مساوياً لهم من حيث شكله البشري لا من حيث مجده الذي يفوق على العالم.

عبر أولئك عن المجرّح بسبب لا مبالاتهم وقساوتهم. لكن السامري ظهر أكثر شفقة وتقوى ورحمة. هكذا فعل المسيح. كان الأجداد والأنبياء لا مبالين بالنسبة للإنسان الذي سقط في معصية. لكن ذاك وُجد شفوقاً ورحوماً. السامري لم يكن من الشعب الإسرائيلي بل كان ينحدر من بلد آخر. هكذا فإن المسيح لم يكن من الأرض بل من السماء. أتى إلى الأرض. كان الهاً فأصبح إنساناً من أجلنا. كان رباً وسيّداً ولبس شكلَ عبد. أظهر لنا عطفاً من السماء ونزل إلى الأرض. رأى الإنسان مطروحاً من اللصوص مأخوذاً بالفسق والوثنية والزنى والقتل، رأى وأشفق على جبلته وصبّ عليه خمراً وزيتاً.

رسائل القديس يوحنا الذهبي الفم إلى أولمبية

«لا تَدَعي نفسكِ تضطرب يا أولمبيّة. ليس من محنة في الوجود خطيرة ومخيفة سوى محنة واحدة هي محنة الخطيئة. هذا ما كنت أردّده أمامك دائماً. وكلّ ما عدا الخطيئة إنما هو وهم». بمثل هذه الكلمات يتوجّه القديس يوحنا الذهبي الفم، رئيس أساقفة القسطنطينية، إلى الشماسة أولمبيّة، وذلك في رسالته السابعة إليها، التي كتبها من مدينة كوكوزوس، في أرمينيا، العام ٤٠٤.

لقد خطّ القديس الذهبي الفم حوالى مئتين وأربعين رسالة تعود، جميعها، إلى الحقبة التي قضاها في منفاه الثاني، أي إلى الفترة الواقعة بين العامين ٤٠٤ و٤٠٧. وكان الإمبراطور أركاديوس قد اتّخذ قراراً بخلع يوحنا عن عرشه الأسقفيّ وطرده من القسطنطينية. لكنّ يوحنا لم يمتثل، بل أصرّ على إقامة قداس الفصح وتعميد الموعوظين في حمّامات قسطنديوس، وذلك لعدم تمكّنه من دخول كاتدرائية المدينة. فما كان من الإمبراطور إلاّ أن أرسل جنداً اقتحموا الحمّامات، منكّلين بالمستنيرين حديثاً ومقتادين يوحنا إلى الأسر. واللافت أنّ يوحنا لم يقطع صلته بمئات الأساقفة والكهنة والمؤمنين المخلصين له. فراح يبعث الرسائل إلى القسطنطينية وفينيقية وبلاد فارس، مشدِّداً الضعفاء، ومعزّياً الحزانى، وموجّهاً تعليماته إلى الرعاة والمعلّمين والمبشّرين، حتى أنّ المفترين عليه أوعزوا إلى الإمبراطور أن يأمر بنقله من كوكوزوس، في أرمينيا، إلى مدينة بيتيوس المنعزلة على الشاطئ الشرقيّ للبحر الأسود. وقد كان هذا الشاطئ أحد أكثر الأمكنة شراسة من حيث قسوة طبيعته وبعده عن المدنيّة، حتى أن القديس مكسيموس المعترف، بعد نحو قرنين ونيف (٦٦٢)، سيقضي نحبه في إحدى قلاعه. إلاّ أنّ يوحنا لم يبلغ منفاه الأخير. فلقد قضى، وهو بعد في الطريق، في الرابع عشر من أيلول من العام ٤٠٧، بفعل الإرهاق.

تنتمي الشماسة أولمبيّة إلى تلك المجموعة من البشر الأخصّاء الذين لم يفتر القديس، خلال منفاه الثلاثيّ الأعوام في أرمينيا، من افتقادهم بالرسائل. وقد خطّ الذهبيّ الفم سبع عشرة رسالة وجهها إلى أولمبيّة، وهي رسائل تختلف في طولها ومحتواها. فبعضها قصير، يتحدّث فيه القديس عن أحواله باقتضاب حاثّاً أولمبيّة على الابتعاد، قدر الإمكان، عن الحزن المفرط (١-٤)، وبعضها بالغ في الطول، يسترسل فيه القديس في التعبير عن لواعج نفسه، مطلقاً العنان لمخيّلته الشعريّة وطاقته الخطابيّة الفائقة، ومستزيداً، بغية تعزية أولمبيّة، في معالجة مشكلة الشرّ المحيط بالكنيسة والمعشّش في وسط بعض من هو محسوب عليها، وذلك من زاوية لاهوتيّة، مستعيناً بمعرفته، التي لا تضاهى، بالكتب المقدّسة: «سأمضي، إذاً، في محاولة تنظيف جرحك، وتبديد الظلمات التي تكتنف نفسك» (الرسالة ٧).

نعرف عن أولمبيّة أنّها تتحدر من طبقة النبلاء في العاصمة الملكيّة. ولقد آثرت، بعد زواجها الذي لم يدم أكثر من عشرين شهراً، بسبب موت زوجها، أن تنذر البتوليّة وتنصرف إلى أعمال الإحسان. فشيّدت، في القسطنطينية، منزلاً لإيواء الغرباء من الأساقفة والكهنة المارّين بالمدينة، فضلاً عن خدمة المرضى.

بعد ان خلط الإثنين وضعهما عليه (لو١٠: ٣٤). ماذا يقصد بخلط الخمر والزيت؟ بعد أن وصل بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، بعد ان وفّق بين الشفقة والخلاص، خلّص الإنسان. لأنه ما ان سال دم ربّنا من جنبه حتى مُحيت خطايانا عن الورقة. ماذا يقصد بالعبارة وضمّد جراحاته؟ يعني أنه ربط الشيطان وحرّر الإنسان. أوثق وأخضع قوّات الشرير وحرّر الإنسان.

«وحمله على دابته» أي ان المسيح أخذ الجسد على عاتق ألوهيته وأصعده من الأرض إلى السماء، إلى الفندق العجيب الرحب، إلى هذه الكنيسة الجامعة. وسلّمه إلى صاحب الفندق، إلى بولس المغبوط، معطياً إياه دينارين، وعن طريق بولس وبواسطته لكل كنيسة أعطى رؤساء كهنة معلّمين وخداماً. دينارين أي العهد القديم والجديد قائلاً: اهتمّ بالشعب الذي يأتي من الأمم والذي اؤتمنت عليه داخل الكنيسة لأن الناس مرضى مجرّحون بالخطايا داوهم واضعاً عليهم بمثابة المرهم الأقوال النبوية والتعاليم الإنجيلية، معيداً صحتهم بإرشادات وتعزيات العهد القديم والجديد، مقنعاً إيّاهم أن يقفوا بعيداً عن الخطيئة ويَدَعوا جانباً ضلالة الخطيئة. وان بقوا هكذا بدون تقويم قيّدهم بأقوالك الشديدة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

وقد جمعت أولمبيّة حولها رهطاً من النساء والفتيات اللواتي كنّ يساعدنها في عملها الإجتماعيّ. فلمّا أتى يوحنا القسطنطينية أسقفاً عليها، العام ٣٩٨، نشأت بينه وبين السيّدة الكبيرة، التي كان سلفه قد سامها شماسة، صداقة حميمة تتأصّل في الهمّ الروحيّ والاجتماعيّ المشترك، وتشهد عليها رسائل النفي.

يسلك يوحنا، في رسائله الأولى إلى أولمبيّة، مسلك المداراة. فلا يتحدّث عن شقائه إلاّ لماماً، حتى أنّه يحاول أن يعطي صورة إيجابيّة عن وضعه في النفي، وذلك لئلا يقلقها، فتستغرق في الحزن. بيد أنّه، بعد استقراره في كوكوزوس وتحسّن أوضاعه، لا يجد مناصاً من أن يفصح للشماسة عن كل ما كدّر نفسه وعذبها. فنجده، في رسالته السادسة، يمعن في وصف ما كان قد لحق به من سوء الحال: «تصوّري حالي تلك، بلا أطبّاء، بلا استحمام... بلا مواساة أو تعزية من أحد... يأخذنا السأم من طريق متعبة، متروكين للهمّ والقلق والمخاوف، وما من أحد يعتني بنا». إلى ذلك، لا يتردّد القديس في أن يصف للشماسة، بالتفصيل، الاحتياطات التي كان يتّخذها لاتّقاء برد أرمينيا القارس، مضرماً النار بغير انقطاع، وملازماً غرفته لا يخرج منها، ومتدثراً بالثياب السميكة (الرسالة ١٧)، أو يطلب منها أن تؤمّن له بعض الأدوية.

بيد أنّ أكثر ما يشغله، في الرسائل إلى أولمبيّة، هو السهر على صحتها وطرد شبح الحزن عن نفسها. يعرف الذهبي الفم مدى الارتباط بين صحتي النفس والجسد، فلا ينفك يذكّر أولمبيّة بضرورة صيانة صحة جسدها، ناصحاً إيّاها بأن تتناول الأدوية التي كان هو قد اختبرها. ومعتبراً أنّ المرض أسوأ بليّة يمكن أن تلحق بالإنسان، إذ هي أشدّ شرّاً من فقدان المقتنيات والنفي والأتعاب والسجن والقيود والشتائم (الرسالة ١٧). وفي هذا كلّه يشدّد يوحنا على ضرورة الابتعاد عن التطرّف في النسك الذي قد يستجلب الأمراض، لأنّ «حيلة الشيطان هي أن يدفعنا إلى التطرّف» (الرسالة ٨). ولكن بالإضافة إلى صحة الجسد، يعتبر يوحنا أنّ من واجبه أيضاً أن يخفّف الحزن عن شمّاسته الوفيّة، راجياً منها أن تعينه في هذه المهمة، فالطبيب لا ينجح في مداواة المريض ما لم يساعده المريض في ذلك (الرسالة ٨). وهو، في مهمّته العلاجيّة هذه، يثق كلّ الثقة بحكمة مريضته، وكمال فضيلتها، وسموّ فكرها، حتى أنّه يشبّهها بالمسيح نفسه، حين سكّن العاصفة: «أعرف أن ليس عليك، في جسيمات الحوادث، إلاّ أن تأمري اللجّة في غضبها، فيعقب ذلك هدوء كامل» (الرسالة ٨).

قد يظهر لنا القديس الذهبي الفم، في رسائله إلى أولمبيّة، على شيء من الإفراط في انهماكه في إيجاد «الحلول» للحزن الذي كان يعصف بشمّاسته. إلاّ أنّه يتبدّى، بالمقابل، طبيباً بارعاً لا يلجأ إلى التأنيب، بل إلى الانطلاق ممّا هو إيجابيّ لدى المريض، فنعثر عليه يمتدح فضائل أولمبيّة، معتبراً أنّ شفاء نفسها من الحزن لن يتأتّى إلاّ من حرارة إيمانها وعمق تقواها. وهو، إذ يكتب إلى أولمبيّة، يكشف ذاته أيضاً، فيتحدّث عن الفرح والترح، عن الطمأنينة والقلق، لا من باب الروحيّات فقط، بل من باب الجسديّات أيضاً كالتعب والبرد والمرض.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb